في معنى الإيديولوجيا؟

د. كمال رايس

جامعة تبسة –الجزائر

الملخص:

يحتل مصطلح الإيديولوجيا مكانا بارزا في التاريخ الإنساني ،نظرا لتوظيفه في سياقات معرفية متباينة كالسياسة وعلم الاجتماع والأدب والنقد ،جعلته مفهوما واسعا ثريا ؛ قوامه انه نظام من المعقولية لتفسير الظواهر والأشياء، نظام لا يتولد عن بديهيات فيحد حدا مجردا ،بل هو مفهوم تاريخي اجتماعي يحمل في ذاته أثار التفاعل الفكري والإنساني مما يضفي عليه صفة المنظومة الفكرية الواعية بذاتها والتي تعبر عن روح تحفز حقبة تاريخية الى هدف مرسوم في مسيرة التاريخ العام. لذا أردنا من خلال هذه الورقة البحثية استقصاء مفهوم الإيديولوجيا ومضمونها وشكلها وكيفية اشتغالها مع تحديد خصائصها ونظائرها.

الكلمات المفتاحية:

الإيديولوجيا، علم الأفكار، اليوطوبيا، رؤية العالم، نظائر الإيديولوجيا.

Abstruct:

The concept of ideology occupies a prominent place in human history because it is used in different cognitive contexts such as politics, sociology, literature and criticism. This has made it a rich concept and a system of reasonableness for the interpretation of phenomena and objects.It is a system that does not generate axioms. The intellectual and human interactio gives it the status of the intellectual system itself, which expresses the spirit of stimulating a historical era to the goal of the march in the course of public history. So, throughout this paper we want to investigate the concept of ideology in both content and form and how it works by specifying its Characteristics and its analogies.

key words:

Ideology, epistemology, utopia, world vision, isotopes of ideology.

الإيديولوجيا – مهاد تاريخي مفاهيمي:

تعد الإيديولوجيا من أهم المصطلحات الفكرية التي أثرت ساحة الثقافة العالمية بسبب ارتباطها بميادين المعرفة الإنسانية قاطبة، وتظهر قيمة الإيديولوجيا عبر ذلك الإرث الثقافي، الغربي الذي شظى المفهوم القاعدة[1] عبر مناقشته، تحويره وتثويره وحتى تشويهه فغدى المصطلح زئبقيا محكوما بالنسبية على المستوى المفهومي، نسبية جعلت أمر ضبطه المعرفي تختلف وتتقارب بل تتعارض بشكل جلي، يقول ماكس سكيدمور Max J. Skidmore: "الإيديولوجيا مسؤولة عن الجريمة الاجتماعية بقدر مسؤوليتها عن الإبداع الثقافي الرفيع وهي التي أدت إلى ظهور الدولة القومية وفي الوقت نفسه، هي التي أطاحت بنظم سياسية عديدة وهي التي تقف وراء السجون والتعذيب وعلى العكس المرتبطة بالسعي الدؤوب لحماية حقوق الإنسان".[2]

إن قولا كالسابق، يوضح طبيعة المفهوم الخاص بالإيديولوجيا وهي طبيعة تحول دائب طالما فتحت سجالات ثقافية وصفت " الجدل المكروه " الذي يدور حولها هنا وهناك، الآن وفي أزمنة مضت".[3]

لا يزال تعريف الإيديولوجيا منذ النصف الأخير من القرن العشرين وإلى غاية يومنا هذا محل اختلاف وجدل عارم بسبب توظيف المصطلح في حقول معرفية عدة كالأنثروبولوجيا وعلم النفس والنقد الأدبي، وعلم الاجتماع، وهذا ما عقد الاتفاق حول تعريف شامل يجعل يحقق مرجعية ثابتة تكون قادرة على ضبط حدود المصطلح توظيفا واستعمالا.

يقول عبد الله العروي: " الإيديولوجيا ليست مفهوما عاديا يعبر عن واقع ملموس يوصف وصفا شافيا، وليست مفهوما متولدا عن بديهيات فيحد حدا مجردا، وإنما هي مفهوم اجتماعي تاريخي؛ وبالتالي يحمل في ذاته آثار تطورات وصراعات ومناظرات اجتماعية وسياسية عديدة"[4].

وتأسيسا على ما سبق، يمكن رصد مواقع المصطلح في مجالات الفكر المعاصر عبر تتبع كرونولوجي تاريخي يتيح – ربما – توضيح صورة الإيديولوجيا – كمفهوم مجرد، وهذا عبر استقراء المصطلح في إطار تكوينه وتفاعله مع التركيز على آلية اشتغاله بالنسبة لكل مرحلة تاريخية، مع مراعاة متطلبات البناء الفكري المتصل به وكذا أهم التصورات التي تقعده، ولعل أقصى ما يمكن الطموح إليه هو محاولة تقديم المفهوم حسب المواقف التي أدت إلى تعيين المضامين المتباينة له.

1- **علم الأفكار " الصيغة الملتبسة في نسق الفلسفة التنويرية ":**

ظهر مصطلح إيديولوجيا لأول مرة في كتابات الفيلسوف الفرنسي ديستوتدوتراسي Destut De Tracy، وهذا ما رجحته أدبيات كثيرة كونه أول من نحت المصطلح " في كتاب له بعنوان " مذكرة حول ملكة التفكير" ثم توسع في شرح "هذا المصطلح" له ضمن كتاب آخر عنوانه " تخطيط العناصر الإيديولوجيا "[5]، وقد عرف هذا الكتاب الإيديولوجيا وقدمها على أساس أنها علم الأفكار، وهو مفهوم يتأسس على مدلول الفكر Idéeفي التراث اللاتيني، ولفظ " علم Logie"، وهذا ما يخلق تركيبا دلاليا كثيرا هو علم الأفكار " العلم الذي يدرس الأفكار بالمعنى الواسع لكلمة أفكار، أي مجمل واقعات الوعي من حيث صفاتها وقوانينها وعلاقتها بالعلائم التي تمثلها لا سيما أصلها"[6]، تشكل دراسة الأفكار إذن ضرورة ألحت عليها طبيعة المرحلة التاريخية في فرنسا التي عرفت ثورتها الفكرية الاجتماعية عبر فلسفة التنوير *، التي فدت المنظر الأول للإيديولوجيا باعتبارها ذلك العلم الذي يسعى " لضبط مدى صحة أو خطأ الأفكار التي يحملها الناس، هذه الأفكار التي تبنى منها النظريات والفرضيات التي تتلاءم مع العمليات العقلية للمجتمع".[7]

وهكذا تبنت هذه الفلسفة على لسان دوتراسي لفظة الإيديولوجيا على أساس مبدأ اعتبار النشاط الفكري مظهرا من مظاهر النشاط النفسي، [مع التأكيد] على أهمية التعارض القائم بين ما يسميه " الميتافيزيقا اللاهوتية القديمة أو الميتافيزيقا بالمعنى الحقيقي للكلمة والميتافيزيقا الفلسفية الحديثة أو الإيديولوجيا"[8]، وهذا القول يشكف عن طموح دوتراسي" في تحليل أنماط البنيات الفكرية ومساءلتها خصوصا فيما يتعلق بالموقع إشكالية المعرفة في الموروث الفلسفي الغربي: كما يكشف عن استراتيجية الاستقراء والتفكيك لحقول المعرفة ذاتها.

لعل الملاحظة التي تشدنا في مقاربة المصطلح في أرضية التنوير، هي السمية التجريبية في التوظيف، من حيث انتقاء الأفكار ومساءلتها ومن ثمة الحكم عليها، تجدر الإشارة على تأكيد منطوق المصطلح Ideologie وهو مركب وفق صيغة مكتسبة طبعت نسقه في فلسفة التنوير، وهذا ما عمق تأثر أرضيته المنهجية لهزات متتالية ادت إلى تعدد دلالاته.

2- المفهوم السلبي / التهكمي:

لاقت أطروحات "دوتراسي" اهتماما بالغا في الأوساط المثقفة الفرنسية أدت إلى انتشار عمليات التقييم والحكم على الأفكار عبر تصنيفها وتسهيل معانيها وتقريبها لجل الطبقات، وهذا

ما عضدها على نشر الفكر التنويري الذي ينهض دائما بالإنسان في سعيه بلوغ الحقيقة. في ظل هذا الاهتمام، اتسعت الدائرة لتشمل مساءلة السياسات التي تبدو معارضة لمبادئ الثورة الفرنسية ذاتها (الحرية – العدالة – الأخوة) وقد أدت تلك المناقشات إلى نتائج تتباين وتتعارض مع مشاريع القائد نابليون بونابرت Napoléon Bonapart الاستعمارية التوسعية؛ فقرر محاصرة مشروعهم " بإصدار أوامره بإعادة تنظيم المعهد القومي الفرنسي سنة 1802 – 1803 واصفا الإيديولوجيين بأنهم أناس حالمون مغرقون في الخيال، بعيدون عن الواقع، وعمل على اضطهادهم والسخرية منهم بمرارة مطلقا عليهم اسم أصحاب النظريات الواهية Idéologues ، كما أنهم في نظره يشكلون خطرا على السلطة لجهلهم بالمشكلات الحقيقية والسياسية لتسيير المجتمع والدولة"[9]، وهكذا كشف نابليون عن طبيعة المصطلح الملتبس الذي استطاع أن يقلبه إلى مفهوم تهكمي يطلق على كل فكر مشوه أو منقوص. وقد عمق هذا الاتجاه، - الرأي – " خيبة الأمل التي مني بها الإيديولوجيون في هذه المواجهة، التي لم تكن تخلو من إشارات لها دلالاتها بالنسبة لأطروحاتهم النظرية التي دفعتهم في مرحلة من المراحل إلى الوقوف بجانب نابليون وبرنامجه الإصلاحي".[10]

على هذا النحو، انتهى علم الأفكار إلى نقيض ما كان يريد الوصول إليه، لاسيما بعد النقد الجاد الذي قدمه نابليون وأتباعه للإيديولوجيين، فعدت الإيديولوجية مجرد نظام من المعقولية، قليل التماسك، يحلل الأفكار من منطلقات واهية، ويعجز عن " الاتيان بأفعال تصنع التاريخ – وكشف المشروع الإيديولوجي عن قصوره في استيعاب الواقع وفهمه والإسهام في بناء صرحه وتكوينه".[11]

هكذا انقلبت الإيديولوجيا من الجانب العلمي المستبعد للشكي والميتافيزيقا إلى ضفة المثالية والميتافيزيقية، هذا الانقلاب أعطاها صفة السلبية المصبوغة بالتهكم والاحتقار.

شاع هذا الاستعمال، حقبة من الزمن ولكنه عرف تشظيا بسبب توظيفه في ميادين معرفية مختلفة، كالفلسفة وعلم الاجتماع والأدب، وتعد المرحلة الماركسية المرحلة الحاسمة في تحديد الأطر الموضوعية لدراسة الإيديولوجيا ومقاربتها.

3-المفهوم الماركسي:

يعترف الباحثون والنقاد بالصعوبات المنهجية التي تتولد عن التصور الماركسي للإيديولوجيا ويعزون ذلك، إلى الديالكتيك في ثنائية المجتمع والتاريخ، لكنهم في الوقت ذاته يشيدون بالعناصر أو المقولات الموضوعية التي طرحها (ماركس Marks) لاستنباط الفعالية الإيديولوجية للمجتمع ومدى

ترابطها بالشق المادي الذي يحددها؛ خاصا بذلك علاقات الإنتاج والاقتصاد، ويذهب ماركس Marks في تحديد طبيعة الوظيفة، الفعالية الإيديولوجية للمجتمع – من اعتبار " الذوات العاملة في التاريخ، هي مجتمعات بشرية معينة، وإن تلك المجتمعات تتبدى لنا ككليات تتشكل وحدتها بواسطة نموذج نوعي من العلاقات المعقدة .. يمكن أن نوجزها .. في ثلاثة هي: الاقتصاد والسياسة والإيديولوجية ... وعلى هذا النحو تشكل الإيديولوجيا جزءا عضويا في كل وحدة مجتمعية".[12]

غير أن المتتبع لمقاربة ماركس للمفهوم يجده قد وظف هذا المصطلح تحت عنوانين رئيسيين الأول وهو الذي استمده من الثقافة الفرنسية، فكان تصوره عن الإيديولوجيا لا يختلف عما قصده الفرنسيون – النابليون – باعتبارها فكرا زائفا ومن ثمة طغى المفهوم السلبي على تعريفه، فغدت الإيديولوجيا ذلك التفكير النقدي غير العقلاني فهي عنده: " مجموعة أوهام تعتم العقل وتحجبه عن إدراك الواقع والحقيقة".[13]

أما العنوان الثاني، فقد تبلور في محاولته التوفيق بين الضرورتين التاريخية والاجتماعية للتشكل الإيديولوجي، ففي اعتقاده أن هناك علاقات معقدة تربط الجانب الاقتصادي المادي بالجانب الروحي الفكري، أي الجانب الإيديولوجي وهو جانب يضم في فلكه كل أشكال القانون والسياسة والأفكار ووعي الناس بالأشياء التي تحيط بهم وتفاعلهم مع خصوصيات مجتمعهم وبالتالي فإن كل الأشكال القانونية والدينية والفنية والفلسفية متضمنة في الإيديولوجيا".[14]

ويذهب ماركس في مقاربته لمستويات العلاقة بين التاريخ والمجتمع إلى إقرار الجدلية الواقعية التي تتجلى عبر معاينة الحياة الواقعية المادية ومختلف أشكال الوعي التي تجسد البنية الفوقية"[15]، وفي هذا الصدد يطرح ماركس مقولته الجوهرية الفاضية بأن: " ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، بل العكس إن وجودهم الاجتماعي هو الذي وعيهم"[16]، وعليه تغدو الإيديولوجيا البنية الكلية ذات الطابع الذهني والمتسمة بالمعقولية، ترسم شاكله الفكر –الوعي– حسب تموضعه في المجموعة الاجتماعية، فالطبقات تخلقها المادة المتحكمة في رسم حدودها وشرعنة أفكارها، وتسهم الإيديولوجيا بذلك في حماة الصراع بين الطبقات الحاكمة والطبقات المحكومة والطبقات المناضلة ضدها، فكل وعي فردي – وبنية – يرسم – يتمثل معالم وهي طبقة، تسعى دوما للحفاظ على أفكارها وتسويقها كرؤية استشراقية، ترسم حدود المستقبل، وهذا ما يؤدي دوما لفكرة الصراع الأبدي بين الطبقات الاجتماعية.

فالأصل حسب الماركسية والعقل أن " الطبقة المسيطرة في المجتمع تسعى لفرض أفكارها واستقطاب أشكال التعبير الموجودة فيه واحتوائها، لتضم إلى هيمنتها المادية سيطرة فكرية.. وبمعنى آخر الطبقة المالكة للقوة المادية المتحكمة في المجتمع، تمثل في ذات الوقت القوة الروحية المهيمنة في ذات المجتمع". [17]

وقد أثرى المفكر الفرنسي الديس ألتوسيير Louis Althusser) المقاربات الماركسية لموضوع الأيديولوجيا عبر بلورته لمقولتين أساسيتين ترتبطان بالإيديولوجيا، حيث تشير الأولى إلى أن الإيديولوجيات ليست صورة مطابقة لـ " ظروف وجود البشر الحقيقية ولا عالمهم الحقيقي، بل قبل كل شيء علاقاتهم بظروف الوجود هذه أو بعبارة أخرى" فكل إيديولوجيا تمثل بالضرورة، في تشويهها الخيالي ليس علاقات الإنتاج القائمة (والعلاقات الأخرى المتفرعة عنها) بل قبل كل شيء العلاقة (الخيالية) بين الأفراد وعلاقات الإنتاج والعلاقات المتفرعة عنها"[18]، وعلى هذا الأساس يمكن فهم الإيديولوجيا على أنها تمثيل للعلاقة القائمة بين الأفراد وظروف وجودهم الحقيقية.

أما المقولة الثانية فمؤداها أن " للإيديولوجيا وجودا ماديا"[19]، فقد استوحاها من قول أنجلز Anglez" أن الاقتصاد لا يخلق شيئا من تلقاء ذاته مباشرة بيد أنه يحدد نوعية وتطور المادة الفكرية". [20]

عكس هذا القول تصرف الأفراد وأشكال سلوكهم العملي معربا أن " أفكار "الذات" التي تحمل الإيديولوجيا هي أعمالها المادية المدرجة في ممارسات مادية والمنظمة بطقوس مادية هي نفسها محددة بالجهاز الإيديولوجي الذي تعود إليه أفكار هذه الذات". [21]

تتعلق الإيديولوجيا إذن حسب ألتوسيير " بعلاقة المعاناة التي تربط الناس بعالمهم، وإن هاته العلاقة التي لا تظهر (واعية) إلا بشرط أن تكون غير واعية ... لا تظهر بسيطة إلا بشرط أن تكون مركبة وأنها ليست علاقة بسيطة وإنما علاقة بالعلاقات، إنها علاقة من الدرجة الثانية، فالناس لا يعبرون في الإيديولوجية عن علاقاتهم مع ظروف عيشهم بل عن الكيفية التي يعيشون بها مع تلك الظروف .. الإيديولوجيا هي التعبير عن علاقة الناس بعالمهم أي بوحدة تلتحم فيها علاقتهم الحقيقية بظروف عيشهم مع علاقتهم الوهمية بتلك الظروف ففي الإيديولوجيا توضع العلاقة الحقيقية داخل العلاقة الوهمية: تلك العلاقة التي تعبر عن إرادة أو أمل وضين أكثر مما تصف واقعا معينا. [22]

4-المفهوم السوسيولوجي:

الإيديولوجيا واليوطوبيا: المفهوم الكلي والمفهوم الجزئي للإيديولوجيا:

إن شيوع كلمة إيديولوجيا وتعدد استعمالها في حقول المعرفة وثراء مدلولها الاجتماعي قد دفعت علماء الاجتماع إلى البحث الحثيث عما يحد هذا المصطلح وبين قواعد اشتغاله، ومن هؤلاء العلماء (كارل مانهايم—M. Cark)، الذي حاول تحديد ماهية الإيديولوجيا من خلال مستويين أساسيين.

أما المستوى الأول، فهو المستوى الدينامي الحركي، فالإيديولوجيا غير قارة بل متحركة كما هو الحال طبعا في حركة الحياة الاجتماعية التاريخية، ولذا وجب مراعاة ملابسات التاريخ في فهم سلوك المجموعة الجزئية.

أما المستوى الثاني، فهو المستوى التقويمي الذي يتعامل مع الإيديولوجيا باعتبارها " منظومة من الأفكار تهدف إلى غاية عملية، .... تصلح قاعدة لعمل جماعي، لذلك فهي بعيدة عن خصائص التفكير الشخصي وعن مطاطيته ومرونته لأنها أقرب لأن تكون برنامج عمل".[23]

ويذهب (مانهايم. M.Carl) في مؤلفه الإيديولوجيا واليوتوبيا، إلى إبراز نمطين للإيديولوجيا يقتضي **النمط الأول**: "أن اللاشعور الجمعي لبعض المجتمعات يهتم في بعض الحالات الظروف الواقعية للمجتمع أمام ذاته وأمام الآخرين ويؤدي دورا في إحداث نوع من الاستقرار"[24]، وهذا الاستقرار الاجتماعي يتغلف بما يسميه الإيديولوجية الكلية ؛التي تعنى دوما بالحفاظ على الوضع القائم من خلال " ممارسة دور فعال في تحفيز الإنسان على العمل ،فوظيفتها الأساسية تبرير أنظمة النظام الاجتماعي والسياسي"[25]، فترسم الإيديولوجيا بذلك معالم الواقع الاجتماعي والإنساني عبر صورة تسهم في تفسير الوجود " يستمد منه الإنسان معايير وقواعد للسلوك في الحياة اليومية، فالمرء الذي يعتنق إيديولوجيا ما يعثر فيها على مرساته ومرتكزه، مثلما أنها تزوده بالمعرفة واليقين عن مغزى حياته ومعناها وتمنحه طمأنينة تشكل الحياة وتشيد صرحها".[26]

أما **النمط الثاني**: فيتعلق بالمفهوم الجديد الذي قابله للإيديولوجيا، وهو مصطلح اليوتوبيا الذي يطلق: على " جميع الأفكار والأوضاع والملابسات التي لا يمكن تطبيقها في الواقع المعيش، نظرا لبعدها عنه، ولذا تبقى نوعا من المسرحية السياسية والاجتماعية الخلاقة التي تطرح في إطار خيالي"[27]، وبذلك يكتسب هذا المصطلح دلالة المستحيل إنجازه والمستبعد تحقيقه، وهي صفة

أساسية لكل فكر ينزع للتغيير الاجتماعي وتعوقه الظروف وانعدام الأسباب يقول مانهايم إن " الفكر الطوباوي يرجع إلى الاكتشاف المعارض المتعلق بالصراع السياسي وهو أن بعض المجموعات المضطهدة مهتمة فكرا بتهديم وتحويل بعض الظروف الموجودة في مجتمع ما بحيث تميل بشكل غير إرادي إلى ألا تدرك سوى العناصر التي تتجه نحو وضعها موضع اتهام وشك، إن فكرها غير قادر على تشخيص مضبوط للظروف السائدة في مجتمع معين".[28]

في ضوء هذا التميز بين الإيديولوجيا واليوتوبيا، تغدو الأولى نظرة فردية تتسم بالنسبية "تتضمن تقريرات وأحكاما حول المجتمع تنبع عن مصلحة وتهدف إلى إنجاز عمل معين وتقود إلى نظرية نسبية فيما يتعلق بالقيم ... أما الثانية فتصالح في معنى رؤية كونية تحتوي على مجموعة من المقولات تستعمل في اجتماعيات الثقافة لإدراك دور من أدوار التاريخ وتقود إلى فكر يحكم على كل ظاهرة إنسانية بالرجوع إلى التاريخ كقصد يتحقق عبر الزمن".[29]

وإلى جانب طرح كارل مانهايمM. Carl، حاول بعض أنصاره ومعاصريه أمثال إرنستبلوخB .Ernest و إمجهEmge تحديد أبسط للإيديولوجيا واليوتوبيا ومن منظور مغاير: "إذ تغدو اليوتوبيا في تحليلاتهم إيديولوجيا مرئية يتوقع حدوثها ... في [حين] يكون النظام الاجتماعي الذي ترسم اليوتوبيا معالمه غير قابل للتحقيق.

نجد أن اليوطوبيا تسعى نحو التحقيق فالمطالب بتغيير جذري للعلاقات المجتمعية والسياسية وتستحث قيام نظام جديد وتقدم وصفا تفصيليا في غاية الدقة والنظام".[30]

تعمد الإيديولوجيا كما الطوباوية على تسخير المعرفة والعلم – نسبيا – لتأكيد حضورها وهيمنتها على فكر مجموعة إنسانية ما، فتذهب إلى تحيين سيطرتها عبر طرح " الأسئلة العلمية وتبحثها من زاوية افتراضاتها الجامدة، وبذلك تنفذ إلى التفكير العلمي وتتخللها بتصوراتها الإيديولوجية وعن طريق تنظيماتها تقوم الإيديولوجيات بتعزيز هذا النفوذ الذي أخذت تمارسه العلوم".[31]

وعليه ، تغدو الضرورة ملمة للتمييز الحاسم والفاصل بين المصطلحين، الإيديولوجيا واليوتوبيا، فمقابل كل إيديولوجيا متحققة أو مسيطرة، تظهر يوتوبيا أو عدة توباويات تتصارع وتناضل من أجل شمولها المجموعة البشرية، فإذا ما تحقق ذلك، تتغير الموازين وتنقلب فتصبح الإيديولوجيا بوتوبيا، والعكس صحيح.

5-الإيديولوجيا ورؤية العالم:

ساهمت عقلانية " كارل مانهايم" في مقاربته للإيديولوجيا إلى تعزيز الفكر النقدي للنظريات الاجتماعية الحديثة، التي راحت تؤكد فكرة الكشف النقدي للإيديولوجيا باعتبارها الذرية الخاصة للجماعة في مرحلة زمانية ما محددة جغرافيا ولها ما يمايزها عن غيرها من المجموعات، وفي هذا الإطار انبثق في الدراسات السوسيولوجية ذات الطابع النقدي، مفهوم معاصر يهتم بالبنى الذهنية والإبداع الثقافي ... هو مفهوم رؤية العالم Vision du monde، كما طرحه الناقد الفرنسي (لوسيان غولدمانL. Godlman).

تستند مقولة "رؤية العالم" على أرضية فلسفية عميقة فتأخذ حججها المنطقية الأرسطية وتخيز صور الحياة بعقلانية ديكارت وتصورات هيغل، ورؤى ماركس. لذلك يبدو المصطلح زمن زاوية نظر مختلفة – مصطلحا فضفاضا يقارب قضايا ترتبط بالحياة في إطار الفردي والاجتماعي، الذاتي والموضوعي، انطلاقا من فكرة الوعي الجماعي للمجموعة عبر التاريخ.

وقد انتشر هذا المصطلح في النصف الثاني من القرن العشرين، وما زال يحتفظ ببريقه إلى يومنا هذا، باعتبارها مفهوما دالا على " شكل العنصر الأساسي الملموس للظاهرة التي يصنفها علماء الاجتماع منذ عشرات السنين بمصطلح الوعي الجماعي، وبالتحديد فهي مجموعة التطلعات والعواطف والأفكار التي توحد أفراد المجموعة أو الطبقة بمواجهة مجموعات أخرى، هذه الوحدة المنبثقة من فعاليات الوعي الجماعي في تماسكه وتشابك عناصره".[32]

تأسيسا على ما سبق، يمكن القول أن مفهوم رؤية العالم -كما طرحه غولدمان- يطابق أو يماثل مفهوم الإيديولوجيا، باعتبار العناصر التكوينية التي تشكل المفهوم وتضبطه، كما تجدر الإشارة إلى أن غولدمان -كان يؤكد وباستمرار- على أن رؤية العالم " ليست مجرد تصور واع للعالم، تصور إرادي مقصود بل هي عنده الكيفية التي يحس وينظر فيها إلى واقع معين، أو النسق الفكري الذي يسبق عمليه تحقق النتاج"[33]، وهذا ما يدعم طرحنا، إزاء عدم التمييز بين المدلولين؛ لتبقى مقولة : رؤية العالم أداة مفهومية ترمي إلى فهم الأنساق الثقافية (البنيات الفكرية) عبر استيعاب وفهم وتفسير المعارف والرموز والصور التي تكتسبها طبقة محددة في فضاء اجتماعي.[*]

6–نظائر الإيديولوجيا:

ليست الإيديولوجيا هي المحرك الوحيد لحركة التاريخ، ولا هي المسألة الذهنية الوحيدة التي تحكم مسار الشعوب والجماعات، إنما يشاركها في ذلك بنى فكرية أخرى، كالدين والفلسفة والسياسة، وهي ما تتشكل أشباه ونظائر للإيديولوجيا، كما تشكل في الوقت نفسه مادة خصبة تتغذى منها الإيديولوجيات، ويفرض علينا – الرأي السابق – ضرورة التمييز بين هذه البنى وتحديد علاقاتها مع مادة الإيديولوجيا وهذا ما سنحاول عرضه عبر المحاور الآتية:

أ– الإيديولوجيا والسياسة:

علاقة الإيديولوجيا والسياسة هي علاقة حضور وغياب، وعلاقة تبادل مواقع توجيه السيطرة العملية على مجموعة اجتماعية عن طريق سلطة ما، قد تكون مدنية أو عسكرية، جمهورية، ملكية، وبنية تحدد وجودها وفق رؤية نظرية سياسية، أو مذهب سياسي يسهم في قيادة دواليب السلطة

وتنجم المذاهب السياسية بناء على أفكار فلسفية عملية، كالماركسية والوجودية ... وتتبدى كسلوك إنساني حين يتخذ كل فرد أو جماعة فلسفة سياسية ما عقيدة له، كأن نقول مثلا: الفلسفة الاشتراكية، الفلسفية الليبرالية، أو أن تتخذ كمسميات لمؤسسيها، كالفلسفة الماركسية، فيؤمن بها ويتخذها رؤية خاصة تفسر ذاته ووجوده، وعلاقاته مع كل العناصر الخارجة منه، وبالتالي يمكن القول: أن المذهب السياسي شأنه شأن الإيديولوجيا ينزع " إلى الكلية النظرية والعلمية التي لا تتوافر بالضرورة بالنسبة للفلسفة والنظرية السياسية".(34)

وعليه يكون المذهب السياسي الإطار الأكثر تنظيما لمقولات جوهرية تخص مجموعة بشرية ما كالجنس والعرف والهوية، ويسعى إلى بناء رؤية للعالم تحقق طموح الأفراد المنتسبين له، ويدخل في شبكات نفاعل، تجاذب وتضاد مع مذاهب أخرى وهذا ما يشكل جزء الصراع الذي تتغذى منه الإيديولوجيا المهيمنة، ومنه، يغدو المذهب السياسي ذراعا من أذرع الإيديولوجيا، ووسيلة من وسائل هيمنتها على سلطة مجموعة ما.

ب– الإيديولوجيا والدين:

ثمة ما يحبه الإجماع، بين علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، على أن الدين هو النظير الفعلي للإيديولوجيا على مستوى الناحية العملية، فكل من الدين والإيديولوجيا يستهدفان تنظيم وبناء مجتمع ما، عبر النظر وإعادة تقييم الواقع الاجتماعي والاقتصادي.

كما يشيرون في الوقت ذاته، إلى أن " ظهور الإيديولوجيات ما كان ليحدث في ظل المجتمعات الزراعية السابقة على الثورة الصناعية؛ نظرا لأن الدين والتقاليد كانا يقوما بوظيفة مماثلة لما أصبحت الإيديولوجيا تقوم به فيما بعد"[35]، وبالتالي تكون الإيديولوجيا التمظهر الفكري الثاني، بعد الدين بالنسبة لحركة التاريخ المتصاعدة.

ويشير رواد الاجتماع فيليب بروPhilipe. Pro، و " أنسار Anssar)*، أن ظهور الإيديولوجيات، لم يلغ سلطة الديني والمقدس في القدرة على تعبئة الجماهير وقيادتها، ويعزون الأمر إلى ضعف الإيديولوجية في تفسيرها لمواقف ميتافيزيقية وغيبية ترتبط بوجدان الإنسان، ومن ثمة راهنت الإيديولوجيات سطوتها وهيمنتها وهذا ما نلحظه في توجهات بعض الجماعات الإيديولوجية الدينية، كتنظيم القاعدة وداعش، واليمين المسيحي المتطرف، والصهيونية العالمية ... وكل هذه التنظيمات تستقي مادتها الخام من البعد العقلي للأديان.

وتأسيسا على ما سبق، يبدو التمييز بين الإيديولوجيا والدين، معرفة نظرية صرفة، لصعوبة تشابك علاقاتهما ضمن مجموعة بشرية ما، غير أن ذلك لا يمنع من تحديد بعض الاختلافات* التي نوجزها في ما يأتي:

– الدين يلامس حياة الفرد الفعلية ويقدم له رؤى غيبية علوية (منطق الجزاء والعقاب) المرتبطة بعلاقة الإنسان بالله والكون، بينما تغيب هذه الوصفة (الغيبيات وشرعها) في الإيديولوجيا ويهيمن على تجليها الصراع الاجتماعي والطبقي في حقبة تاريخية معينة..

– قيم الدين مستمدة من نص علوي مقدس، بين الإيديولوجيا تستمد قيمها من التجربة والمبادئ المتصلة بالواقع وحركة التاريخ.

– أحكام الدين ملزمة وقطعية، بينما أحكام الإيديولوجيا ظرفية قابلة للتعديل والتغيير حسب الظروف والحاجة.

– تجنح معتنقو إيديولوجيا إلى تبريرات شرعية معتقدهم عن طريق الرجوع والإحالة إلى الواقع الاجتماعي، أما معتنقو الدين – المتدينون – فهم ليسوا بحاجة إلى تبرير نظرا للتداعي التي يضفيها الإيمان بكتاب أو بديانة ما.*

هذا يؤسسون مواقفهم عبر ما يسمى علم الكلام.[36]

7- الإيديولوجيا في مجال اللغة والخطاب:

تبدو أهمية اللغة بالنسبة للإيديولوجيا في أنها الوسيلة الأساسة المستخدمة في نقل الأفكار وتحليلها وتعليل وجودها ومراميها، فالإيديولوجيا قارة في اللغة التي تفصح عنها وتتطور بفعل تطور اللغة، كما أنها " تمارس تأثيرها على الفكر الإيديولوجي بحكم أنها ومن خلال الإيديولوجيا تفرض أنماطا معينة من التصور والتفكير مؤلفة نظاما من القيم والمعايير التي تبدو حقائق تمارس تأثيرها على السلوك الإنساني".(37)

وعليه، تبدو الفكرة السابقة -اللغة فضاء الإيديولوجيا أو ما لها- فكرة أصيلة نجد مادتها الخام أعمال "أرسطو" لاسيما مقاربة جنس الخطابة، الذي عده قناعا سياسيا " فهو كالجدل لا يبحث في طبيعة موضوع معين وإنما هو قوة لإنتاج الحجج [...] فالخطابة فرع من علم المنطق ومن الفرع السوفسطائي، لكن كلما حاولنا أن نجعل الجدل أو الخطابة على غير ما هي في الواقع أي لا ملكات علمية، بل علوما، فإننا على غير وعي بخطم طبيعتها الحقيقية لأننا بذلك نعيد شكلها ونحولها إلى ميدان العلوم الباحثة عن موضوعات محددة بدلا من مجرد تناول الكلمات والأشكال الخاصة بالكلمة".(38)

وبالاستناد إلى قول " أرسطو " السابق، تبدو اللغة والكلمة – من حيث المعرفة الموضوعية المعيار الرئيس الذي تنتظم وفقه إيديولوجيا ما؛ فالكلمة على مستوى الخطاب الإيديولوجي، تبدل موقعها من المستوى المعجمي الدلالي ،إلى المستوى الإيحالي المرجعي الذي يفرضه سياق التلفظ – الخطاب، فكل أسلوب – ومهما تعمد إخفاء إيديولوجيته– فإنه يتجلى، جوهريا، عبر توظيف مصطلحات وصيغ خاصة به قصد التعبير عن المرامي التي ينشط عبر الخطاب.

ومن زمن أرسطو إلى زمن البنيوية المعاصرة، ظلت اللغة الأداة الأساسية للتعبير عن أفكار الناس وفي ذات الوقت الأداة التي تكشف وعيهم ومستويات إدراكهم وتعاملهم مع الحياة الاجتماعية، وقد ثبت هذا الموقف رائد البنيوية، دوسيسيرDessausure الذي يرى أن " اللغة لا وجود لها خارج الإطار الاجتماعي"، فاللغة عند سوسيير شأنها شأن الإشارة، وظاهرة عامة لا تفهم إلا في إطار الجماعة المستخدمة لها، وقد أثارت هذه الرؤية إهتمام الأرسيين المأخوذين ك " ستراوس، و؟؟؟ وبارت Barth، الذين حاولوا علمنة الدرس اللغوي بما فيه من نصوص أدبية، وانتقلوا بالدرس اللغوي من الزاوية المعرفية الصرفية إلى المستوى السيميولوجي الإشاري مما ساهم في ترسيم

فكرة جوهرية أساسها " اللغة ظاهرة حاسمة في فهم الوعي والحياة الاجتماعية، وهي أحد أهم الظواهر الإنسانية القابلة للإثراء عبر الدرس والمتابعة " ويقول ستراوسClaude L.S " اللغة هي الظاهرة الاجتماعية الرصيدة التي تبدو اليوم قابلة لدراسة علمية حقا".[39]

وهكذا فإن فتح فضاء دراسة اللغة ورصد إيديولوجيتها يوجب تتبعها عبر النظر إلى أبنيتها وتراكيبها وطرائق تعبيرها ورصد ملامحها.

خاتمة:

باستقرائنا للتصورات السالفة – حول موضوع الإيديولوجيا – ارتأينا أن نقدم بعض النتائج التي رصدناها، نوجزها كما يأتي:

أ- تبرز الإيديولوجيا كنظام من الأفكار، تكون اجتماعية المنشأة، تتطور لتشكل أفق تطلع جماعة معينة في إطار جغرافي/ تاريخي معين، فتعمل على توجيه المنتمين لها عبر تكييف الوقائع وتحسين الفرص لأقلمته مع الواقع وظروف وجوده الخاصة، وقد ينطور هذا التكييف المعرفي على حقائق كما قد ينطوي على تزييف، وقد تكون مقولاته عقلانية أو لا عقلانية".[40]

ب- ترتبط الإيديولوجيا بتوجه المجتمعات، لذا يكون الوسط الاجتماعي هو المستهدف سواء بسيطرة الإيديولوجيا أو بدراستها ونقدها.

ج- تنهل الإيديولوجيا من العلم وباقي فروع المعرفة لخدمة أهدافها " فتأخذ الحجج الصالحة للاستعمال وتحاول أيضا ممارسة النفوذ على العلوم فتطرح الأسئلة العلمية وتبحثها من زاوية افتراضاتها الدغماطيقية وبذلك تنفذ إلى التفكير العلمي وتتخلله بتصوراتها الإيديولوجية".[41]

د- توظف الإيديولوجيا نظائرها (الدين، الفلسفة، السياسة) لتعبئة الجماهير من خلال "التأثير على أفكارهم لتجسيد طموح جماعة ما تستأثر بالسلطة، وتواجه جماعات أخرى ما يولد الصراع الإيديولوجي، وهو صراع يتجاوز تبسيط اختلاف الأفكار، إلى اختلاف الطبقات والقوى المختلفة من اجل الحصول على السلطة.

هـ- تخاطب الإيديولوجيا البعد الروحي والاجتماعي (العرقي، الإثني) للفرد أو الطبقة عبر صيغ خطابية تتراوح بين الأفكار السياسية والفلسفية المعقدة إلى الشعارات والرموز.

و- تنشأ الإيديولوجيات وسط صراع الطبقات وغالبا ما تقترن بأزمة " إذ أن ميل الإنسان إلى إيديولوجيا يعني أنه اضطهد تحت الظروف القائمة التي لا تشبع حاجته أو حتى تستطيع قيادة

أعماله، مثل هذه الظروف تجعل الفرد ساخطا على الحاضر خائفا من المستقبل ... فيتجه للإيديولوجيا التي تحقق له الأفضل، ولعل نماذج الثورات الكبرى في تاريخ البشرية خير مثال على ذلك".[42]

ز- الإيديولوجيا نسق -مجموعة أنساق متحدة- تشكل تصورا للعالم الذي يشمل جانبا نظريا (بوصفه يقوم بعملية معرفية ويقدم نشاطا فكريا) وجانبا تطبيقيا لكونه (إطارا يتجسد "كإيمان واعتقاد " وتترجمه عيانا مواقف وممارسات ونشاطات ملموسة.

ح- الإيديولوجيا تصور العالم يتجلى ضمنيا في الفن والقانون والنشاط السياسي والاقتصادي وفي جميع حركات وسكنات الحياة الفردية والجماعية.

الاحالات والهوامش:

([1]) المفهوم القاعدة: إيديولوجيا Ideologie، (كما طرحه دوتراسي).

([2]) عمار علي حسن: الموسوعة السياسية للشباب، الإيديولوجيا، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط1، يونيو، 2007.

Max J. Skidmore : Ideologies : Polities in action. Harkourt, brace et company, 2nded, 1993, P : 01.

([3]) المرجع نفسه، ص 09.

([4]) ع. العروي: مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، ط5، 1993، ص05.

([5]) رشيد مسعود، ملاحظات حول الفهم الفلسفي للإيديولوجيا، فلسفة التنوير، مجلة الفكر العربي، العدد 15 آيار/ حزيران، 1980، ص55.

([6]) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

([7]) فرانسوا بوريكو: المعجم النقدي لعلم الاجتماع، تر: سليم حداد، ديوان م ج الجزائر، ط1، 1986، ص 73.

([8]) عماد هرملاني: العلم والإيديولوجيا، رسالة ماجستير، ت مناهج البحث العلمي، جامعة دمشق، سوريا، 1987، ص 04.

([9])عمر عيلان: الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، منشورات جامعة قسنطينة، الجزائر، 2001، ص 13.

([10])عماد هرملاني: العلم الإيديولوجيا، م. س، ص 08.

([11])أنظر: ياكوبباريون، ماهي الإيديولوجية؟ تر: أسعد رزوق، الدار العلمية، بيروت، 1979، ص31.

([12])محمد سبيلا، عبد السلام بن عبد العالي: الإيديولوجيا، دفاتر فلسفية نصوص مختارة، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 2006.

([13])عمر عيلان: الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي،م.س.ص14

([14])عبد الله العروي: مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، ص 30.
([15])عمرو عيلان: الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، م.س، ص 16.
([16])عمار بلحسن:الأدب والايدولوجيا، ص 12-13.
([17])محمد عيلان: الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، م.س، ص 16.
([18])عماد هرملاني: العلم الإيديولوجيا، مذكرة م. جامعة دمشق، 1987، ص 26.
([19])يوسف نور عوض: نظرية النقد الأدبي الحديث، دار الأمين، القاهرة، 1994، ط1، ص 32.
([20])عمرو عيلان: الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، م.س، ص 18.
([21])لويس ألتوسيير: الإيديولوجيا وأجهزة الدولة الإيديولوجية، ضمن كتاب: دراسات لا إنسانوية عن لويس ألتوسيير وجورج كانفيلم، ترجمة: سهيل الفش، المؤسسة الجامعية للدراسات والشعر، بيروت، ط1، 1981، ص ص 112، 113.
([22])ينظر: لويس ألتوسيير: ما هي الإيديولوجية؟ ترجمة: محمد سبيلا وعبد الله ملام بنعبد العالي، ضمن: دفاتر فلسفية، م.س، ص 9-10.
([23])إلياس فرح: تطور الإيديولوجيا العربية الثورية، مجلة الفكر القومي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2، 1986، ص10.
([24]) كارل مانهايم: الإيديولوجيا واليوتوبيا: تر: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، م.س، ص 14 (دفاتر فلسفية).
([25])مالك عبيد أبو شهيوة: الإيديولوجيا والسياسة، الدار الجماهيرية للنشر، ليبيا، ط1، 1993، ص53.
([26])ينظر: ياكوبباريون: ما هي الإيديولوجية؟ تر: أسعد زروق، الدار العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1971، ص 123.
([27])عبد الهادي الجوهري: قاموس علم الاجتماع، المكتب الجامعي الحديث، القاهرة، ط3، 1998، ص 254.
([28])كارل مانهايم: الإيديولوجيا واليوتوبيا، تر: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، م.س، ص 14.
([29]) عبد الله العروي: مفهوم الإيديولوجيا، مرجع سابق، ص13.
([30])زكي محمد نجيب: الإيديولوجيا ومكانتها من الحياة الثقافية، فصول النقد الأدبي، الهيئة المصرية للكتاب، عدد 4، ج1، 1985، ص 28.
([31])محمد سبيلا: الإيديولوجيا، م. س، ص15.
([32])نقلا عن / عمرو ميلان: Lucien Goldman : Le dieu caché – Ed, Gallimard, Paris, 1983, P25-26
([33])بون باسكادي: البنيوية والتكوينية ولوسيوانغولدمان، تر: محمد سبيلا، المؤسسة العربية للأبحاث، ط2، 1986، ص48.
(*) ورد تحليل المفهوم في الإطار الإجرائي للمقاربة، الفصل الأول، ص:
([34])عمار علي حسن: الإيديولوجيا، الموسوعة السياسية، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط1، 2007، ص 18.

([35])إسماعيل صبري/ محمد محمود ربيع: موسوعة العلوم السياسية: الكويت: جامعة الكويت، 1994، ص 268.
نقلا عن الموسوعة السياسية للشباب، م.س، ص 22.
([36])وردت تفضيل هذه الاختلافات في مؤلف: الإيديولوجيا والمنازعات والسلطة، بيير أنسار، تر: حسان الحصني، منشورات وزارة الثقافة.

([37])ما هي الإيديولوجيا؟ مرجع سابق، ص 15.
([38])أرسطو –الخطابة ، سلسلة الكتب المترجمة (14) تر: عبد الرحمان بدوي، دار الرشيد، بغداد، 1980، ص 31.
([39])كلود ليفي ستراوس: الأنثروبولوجيا البنيوية، تر: مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1977، ص 78.
([40])لويس ألتوسيير: البنية ذات الهيمنة، التناقض والتظافر، تر: فريال جبوري غزول، غصول، مجلد 5، عدد: 3، 1985، ص17.
([41])المرجع نفسه، ص 171.
([42])سمير أيوب: الإيديولوجيا واليوتوبيا في الأنساق المعرفية المعاصرة، م.س، ص 58.